المحاضرة رقم 2:

3. التطور التاريخي للصورة:

عرفت الصورة تطورات ملحوظة عبر الزمن، فكان أول تواجد للصورة في الكهوف استخدمها الإنسان كأداة سحرية يستعيذ بها من الحيوانات بسيطرته عليها في رسومه على جدران الكهوف فتسهل عليه السيطرة في الواقع، ثم بعد ذلك كانت الصورة بمثابة التعبير عن مذهب ديني، ثم انفردت الصورة واستقلت لتصبح موضوعًا بنفسها حتى صارت لونا من ألوان الفن إلى أن أصبح في النهاية موضوع متعلق بتجارة الفن.

وقد قسم روجيس دوبريه تاريخ الصورة إلى ثلاث مراحل ترتبط بالوسائط والاختراعات الثلاثة (الكتابة، الطباعة والتقنيات السمعية البصرية) وصنف الصورة إلى ثلاث أصناف مميّزة هي (الصنم – والفن – والبصر) حيث أنه قسم تاريخ الصورة إلى: "ما قبل التاريخ، والتاريخ الوسيط، والكلاسيكي، والحديث، والمعاصر، فوضع نظريته التي تهتم بتاريخ العين وأنماط امتلاك البصر كالآتي:

أ. عصر الخطاب (logosphere): ويعني به عصر الأصنام بالمعنى العام لكلمة صورة، كما هي ترجمتها بالإغريقي "eidolon" وتمتد من اختراع الكتابة إلى اختراع المطبعة.

بدأ هذا العصر وانتهى إلى الإغريق وامتد فيما بين قبل التاريخ وعصر المسيحية، وهو عبارة عن صورة جامدة، ولم تكن المسألة جمالية، بل كانت دينية، وصانع الصورة الصنمية حرفي، والهدف منها الحماية والخلاص.

ب. عصر الكتابة (graphosphere): ويطابق عصر الفن، ويمتد من المطبعة إلى التلفزيون بالألوان.

بدأ هذا العصر في الغرب، وانتهى إلى إيطاليا، وامتد ما بين عصر المسيحية، والحداثة، وهو انتقال من اللاهوتي الديني إلى التاريخي.

وأصبحت الصورة إنسانية تتحرك من مكان إلى مكان وتحررت من سلطة الدين عليها، وأصبح الفنان مستقل بذاته له أكاديمية الخاصة ويهتم بتمثيل الصور من الواقع والطبيعة، والهدف منه الجمال والمتعة والصورة الملهمة.

جـ. عصر الشاشة (videosphere): وهو يقابل العصر البصري: وهو العصر الذي نعيش فيه الآن، هذا العصر له إيقاع خاص، سريع، وصورته تخيلية رقمية، وهو بين العصر الحديث وما بعد الحداثة، وله وسطه الخاص الخاضع للدائرة الاقتصادية (المسألة قدرة شرائية) وتتشكل مادته من فتان الأساطير السالفة، وللبصري شبكة متخصصة، ويعمل في مصنع أو مكتب ويرتبط بزبائنه عن طريق الفاكس أو الحاسوب، وعليه أن يكون مبادرًا إذ عمله الإذاعة والنشر، والهدف منه الإخبار والنشر.

يشير "دوبريه" إلى أن كل عصر له سماته الخاصة من حيث النظام والفكر والشكل العام، وأن هذه العصور تتداخل في بعضها، وأن بزوغ عصر لا يمحو الذي قبله، إذ لم تمحي الطابعة من ثقافتنا الأمثال والأقوال المأثورة، ولم يمنعنا التلفزيون من مشاهدة المتاحف، ولم تنمحي الآثار المصرية القديمة للناظر إليها من الشاشة[1].

ويمكن القول أن الصورة كوسيلة اتصالية تكورت بتطور وسائل الاتصال، فقد تنقلت عبر العصور لتستفيد من التقنيات المختلفة المصاحبة لكل عصر، فالصورة الموجودة في الكهوف والمغارات تختلف بكثير عن صورة الإعلانات التي نجدها في الشاشات العملاقة، وتختلف كذلك من الصورة المفبركة "بالفوتوشوب"، وعن الصورة الثلاثية الأبعاد، والصورة الثابتة باللونين الأبيض والأسود تختلف عن الصورة الثابتة بالألوان والصورة الثابتة تختلف عن الصورة المتحركة، والصورة في العصر التماثلي تختلف عن الصورة في العصر الرقمي، فالعامل التقني أثّر كثيرًا على تطور الصورة وجودتها، وجاذبيتها وتأثيرها.

([1]) روجيس دوبريه، ترجمة فريد الزاهي، **حياة الصورة وموتها**، إفريقيا الشرق، المغرب، 2002، ص ص165-191.